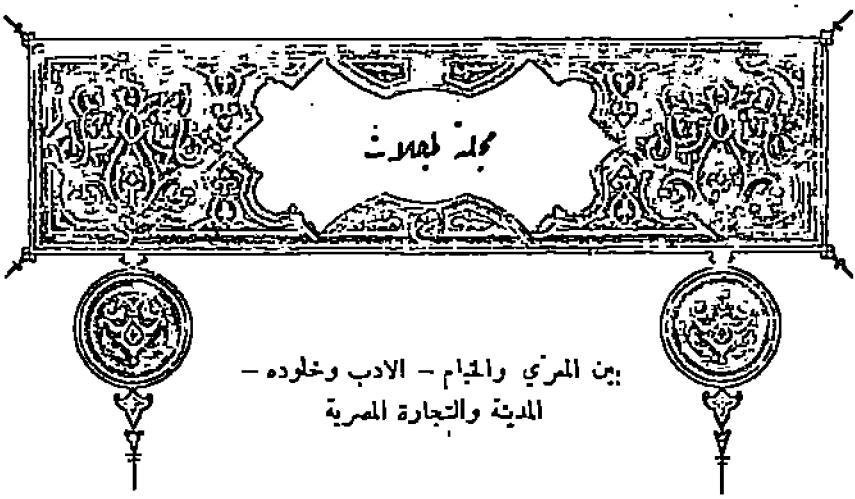

بين المعرّي والخيام – الادب وخلوده – المدنية والتجارة المصرية

بين المعري والخيام

نشرنا سابقاً في المشرق (٢٦ [١٩٢٨] ٤٤١–٤٥٠) مقابلة بين المعرّي والخيام قارنّا فيها بين آراء الشاعرين في فكرة الموت وما وراءه من مصير الارواح ومآل الاجسام. ثم أتنا، في الصيف الماضي، بلقاء احد كبار الخيّاميين في الشرق، الاديب العراقي المعروف، الاستاذ احمد حامد الصرّاف، فاكبرنا جهوده المتواصلة في درس الخيّام، واطلاعه الواسع على آثاره، وتنقيبه عمّا ثبت له من الرباعيات وما اضيف اليه، واخذه في الابحاث بناحية من المقابلة والموازنة تكمّل الدروس الادبية الحقّة. وقد اطلعنا له مؤخرًا، في مجلة المجمع العلمي العربي (الجزء ٩ من السنة ١٩٣٠) على «مقارنة بين المعرّي والخيّام» قابل فيها بين اخلاق الشاعرين، ومحيطيهما، ومعتقداتهما المختلفة، فانت بعض اقسامها خير تتمة لدرسنا السابق، اذ حصرنا كلامنا عن فكرة الموت وما بعده عند الشاعرين المذكورين، وها انا نورد ما قاله الاستاذ في اتفاق اخلاق مفكرينا ومحيطيهما:

ان من غريب الاتفاق ان يكون الحكيمان متماثلين في الاخلاق فكلاهما كان منقبض النفس ضيق الصدر منزوياً عن الناس زاهدًا فيما بايديهم ماقتاً لهم مستهزئاً بهم مستخفاً بعقائدهم ومبادئهم وكلاهما مبغض للدنيا متطال لامور غامضة أجل شأناً واعظم قدرًا من حطامها وكلاهما متطلع تائق الى اسرار الحياة معنى بها، وكلاهما ابي النفس صادق القول مطلق الرأي جري على البوح بمذهبه، الا فترات كانا كلاهما يراعي فيها خواطر الناس خشية الاذى والضرر. وكلاهما فقير لم يملك شيئاً من حطام الدنيا، ولو ارادا لنالا وفرًا وذهباً وفضة، وكلاهما عاش عزباً لم يتزوج وكلاهما نشأ في عصر حافل بالعلوم والمعارف فائض

بالآراء الفلسفية ، اذ في عصرهما ظهر مذهب الاسماعيلية والباطنية وفي عصرهما اجتمع اخوان الصفا خفيـة وابرزوا رسائلهم الشهيرة . واقوال الفيلسوفين على تقارب في العلوم والمعارف . اما تآليفهما فقليلة ايضاً وأما السياسة في زمانهما فتشابهة فقد كانت نار الفتنة مشتعلة في سورية في عصر المعري . واما فارس فقد كانت رحى الحرب فيها دائرة كل المدة التي عاش فيها الخيام فانه نشأ في اكناف الدولة السلجوقية التركية التي قامت مقام الدولة الغزنوية ولم تقم تلك الدولة الا بالسيف وكان الخيام يشهد ذلك وقد اتسع سلطان هذه الحكومة في ايام ملكشاه (٤٦٥–٤٨٥) الذي كان يجل عمر الخيام اجلالاً عظيماً حتى عهد اليه بناء الرصد وترتيب الزيج . وفي عهده اسس زميله وشريكه في الدرس «حسن الصباح» مذهب الباطنية وفي ايامه ارتكب الباطنية المنكرات والموبقات وفيها قتيل زميله وشريكه الآخر «نظام الملك» بطعنة باطني .

ثم يشير الكاتب الى ان كلاً من الشاعرين «اتهم بضعف الايمان ، والمروق من الشريعة ، ووُسم بالتعبير الذي كان شائعاً في ذلك العصر وهو «الزندقة» ، ذلك الجرم الذي ما أُلصق باحد الا كان جزاؤه الموت . » وهـذه التهمة نتيجة لازمة لشاعة الشيخين في افكارهما الشكوكية الحائمة حول الايمان بالبعث وانكاره . ويرى الاستاذ «ان كلا الحكيمين كان منكراً للبعث غير معتقد بحشر الاجسام وخلود الارواح ، واما الابيات التي نظمها الشيخان في اثبات البعث فقد نظماها تقية وخوفاً من الناس وسخط الجمهور عليهما.» قلنا : ولعل تلك الحالة النفسية التي كانت تدفع الشيخين الى نظم الابيات في الايمان والتي نسبها الاستاذ الى التقيّة ومداراة الجمهور ، قـد تكون نتيجة الشك المتحكم في شخصية الحكيمين ، ولا يخفى ان الشك ليس بالحالة الدافعة الى الاطمئنان ، بل هو لا يزال يدفع صاحبه من تردّد الى تردّد ، ويتخطى به من حيرة الى حيرة ، ويحرك حوله من كثافات ظلام التشاؤم – وهي حالة الشيخين كما بيّنه الاستاذ – حتى يفضي به الى قلق مؤلم يحمله على الشك في ايمان معاصريه شكاً فمآلاً لا يلبث ان ينقله ، اذا ما تأثر بعوامل جديدة ، الى شك جديد في شكّه ذاك ، فيرجع الى ايمانه السابق او الى ما جاوره ، فيسكن هنية يعود بعدها الى نقطته الاولى . . . وهكذا دواليك . . . ولعل ما نراه من مظاهر الايمان في ابيات الشيخين وليد هذه اللمحات السريعة من نور الاعتقاد في ظلام الشك .

هذا وبعـد ان يتكلم الاستاذ عن تأثير التشاؤم في آراء الشيخين يستنتج « ان كلا الحكيمين اتفقا على ان الحياة خطب وبلاء ، فقـد اتحدا واتفقا على تشخيص الداء الا انهما اختلفا في الدواء . فبينا كان الخيام يرى دواءه الوحيد في الخمرة ، كان المعرّي يلتمسه في الموت :

كان عمر الخيام يرى ان الوسيلة الوحيدة الى النجاة من آلام الحياة السلافة. وكان المعري يرى ان المنية هي الوسيلة الى ذلك . وقد وصف الخيام الخمر بما وصف به ابو العلاء الموت. وفي طاقتنا ان ندعي ان نفس المعاني التي ذكرها المعري في الموت جعلها الخيام في الخمر. فقد ذهب في المغالاة بمدحها ، والاسراف في حبها ، والولوع بها ، وحث الناس على شربها ، ما جعل بعض الباحثين ان يسيئوا به الظنون ويعتبروا اقواله ضرباً من الجنون ونزعة من السفه. وقد ذهب الخيام في الخمرة مذهب اكثر الشعراء والحكماء الذين كانوا يرون ان فيها راحة للنفوس وتسكيناً للاوجاع وتخفيفاً للآلام والاكدار.

وتدل رباعياته على انه لم يشرب لمجرد اللهو والعبث . وانما اتخذها دواء كما يتخذ المريض الدواء لمرضه. وانه كان يرى ان السلافة هي الوسيلة الوحيدة الى تبديد الهموم وتفريج الكروب عن الصدر فمن ذلك قوله ما معناه :

«ليس شرب الخمرة من اجل الطرب والفساد وترك الدين والأدب. انما أريد ان انس الصعداء وانا ذاهل عن نفسي نشربي الخمرة وسكري لهذا السبب.»

«بين مجيء الربيع وذهابه تطوى اوراق وجودنا . اشرب الخمرة ولا تتألم فقد قال الحكيم ان آلام الحياة سم ودرياقها الخمر.»

وقد ظن بعض الباحثين ان السلافة التي يتغنى بها الخيام في رباعياته هي «سلافة الحب» او «خمرة الحقيقة» او «السكر المقدس» وهي الخمرة الخيالية التي ينشدها شعراء الصوفية في قصائدهم مثل ابن الفارض وجلال الدين الرومي وغيرهم ، وفي الحقيقة ان هذا الظن باطل غير صحيح ، فان عمر الخيام لم يتغزل بخمرة وهمية وانما تغزل بالمشعشعة الحمراء بنت الكروم لابادة الالم الرابض في صدره والرباعيتان اللتان تقدم ذكرهما كافيتان في دحض هذا الزعم.

اما شيخ المعرة فقد خالف صاحبه في هذا المنى واكثر من ذم الخمرة وقبحها وندد بشاربيها وزعم انها سالبة العقول هاتكة الوقار مفرقة الاحباب ، وقد اجهز على السلافة في لزومياته فمن ذلك قوله :

وحاذر من الصهباء ، فهي عدوة   من الصهب مشت في مفاصلك السكرا

. . .

البابلية باب كل بلية ،   فتوقين هجوم ذاك الباب !

جرّت ملاحاة الصديق ومجره ، واذى الندم ، وفرقة الاحباب ،
ام الحبـاب ، وان أبيت لحبيها بمزاجها ، وافت كأم حباب ،
هتكت حجاب المحصنات ، وجشمت من الصيـد تقحّم الارباب ؛
وتوهّم الشيب المدالف انهم لبسوا ، على كبر ، برود شباب ؛
واذا تأملت الحوادث ألفيت صحب الدنان اعادي الالباب.

. . .

قلنا غير مرة ان الخيام والمعري كانا يريان الحياة خطباً وشراً يجب التخلص منها اما الخيام فقد رأى ان احسن وسيلة تنجيه منها هي «الخمرة» واما المعري فقد ذمها وكان يرى ان الموت هو الدواء الشافي ، وكان يتطلب الفرج على يد المنية وقد تمناها في كثير من شعره فمن قوله :

اما حياتي فالي عندها فرج فليت شعري عن موتي اذا قدما !
صحبت عيشاً أعانيه ويبليني ، مثل الوليد يقود المصعب السدما
وقد ملكت زماناً شره لجب اذا دنا لحبر ، عاد فاحتدما ،
من باعني بحياتي ميتة سرحا بايعته : وامان الله من ندما !

. . .

رب ، متى ارحل عن هذه الـ دنيـا ، فاني قد اطلت المقـام ،
لم ادر ما نجمي ، ولكنه في النحس مذ كان جرى واستقام
فـلا صـديقي يترجى يـدي ولا عدوي يتخشى انتقام ،
والعيش سقم للفتى منصب ، والموت يأتي بشفاء السقام .
والـترب مثواي ومثواهم وما رأينا احداً منه قام.

ثم يختم بمقابلة في مصير الاجسام بعد الموت على نحو ما ذكرناه في مقالنا السابق.

الادب وخلوده

قابل احد كتاب الانكليز شاعر الهند الأشهر ، رابندرنات طاغور ، فحادثه عن «الادب والحياة» حديثاً نقله الكاتب الى مجلة «المقتطف» وفيه آراء في خلود الادب وبعض عوامل الشهرة الادبية لا تخلو من فائدة ، منها قوله (جزء تشرين الثاني ، ص ٣٢٢) :

قال : كيف نستطيع ان نحكم على بيان عصرنا لمعرفة الآثار التي تنعم بنعمة الخلود ؟ ان بيان كل عصر هو نتيجة عوامل واحوال مهدت له السبيل في عصور سابقة ، وهو بدوره يمهد السبيل لبيان جديد في عصر تال. فلا بد لنا من موضع للنظر المشارف لنستطيع الحكم على الانسان وأسلوبه في الافصاح عن نفسيته . والمسافة في الزمان والمكان لا مندوحة عنها لهذا الحكم لان

القرب يحير البصر لكثرة ما نراه من الدقائق فيمتنع علينا النظر الشامل وتتعذر رؤية الكل كلًا لا اجزاء من كلّ .

سألني كثيرون عن احب الشعراء اليَّ واي رجل اعظم الرجال في نظري . اننا لا نستطيع ان نحصر التفوّق في شخص واحد لكثرة المتفوّقين . تلقيت علومي في العصر الفيكتوري فانا اجيد لغته وافهم ادبه ولكنني لا استطيع ان افهم تعبيرات الادباء المحدثين . قد تكون هذه التعبيرات غاية في الابداع وقد تنطوي على صفات تضمن لها الخلود كالصفات التي تمتاز بها اشعار شلي وكيتس[1] ولكنني لا افهمها .

ان لغة كل امة كالامة ذاتها . فاما ان تتقدم واما ان تموت . انها لا تستطيع ان تجمد في مكانها . فالانكليز لا يتكلمون بلغة تشوسر[2] الآن . ولو اتيح لتشوسر ان يطلع على اسلوب الكتابة في العصر الاليصاباتي — عصر شكسبير وفرنسيس باكون — لحسبه رطانة محدثة . هكذا ينظر ادباء العصر الفكتوري الى اساليب الادب الحديثة .

وفي لغة كل شعب تتردد اصداء الزمان ! لقد انقضى عهد التجوال الشعري في الريف والطمأنينة في البعد عن المدن . ونحن الآن في غمار عهد لطنين السندان واصطخاب الآلات اعظم شأن . فالنغمات المتسقة الغنائية التي كنا ننشدها في امسنا الغابر قد انقضى عهدها وحلّت محلها العبارات المقتضبة والشعر المطلق في يومنا هذا القلق المضطرب . وليس هذا بالامر الذي يؤسف له . فكل فترة يزكو فيها الانتاج العقلي والفني تعقبها فترة راحة تخلد فيها النفس الى السكينة تستجمع قواها فاذا بدأت فترة الانتاج التالية اتصلت اساليبها بالعنف وبالرجوع الى السذاجة مسترجية دوافع البشر الاولية في الخلق والابداع .

. . .

كلما تقدمنا في السن قويت بصيرتنا الروحية فنستطيع ان ننظر الى الاشياء نظرًا مشارفاً فنفهم عللها . فيحملنا ذلك على تفضيل ايام حداثتنا الزاهية على

(١) شلي وكيتس شاعران انكليزيان من اكبر شعراء القرن التاسع عشر

(٢) شاعر انكليزي من القرن الرابع عشر

ايام كهولتنا او شيخوختنا التي نعاني اعباءها فنشير الى ايام الشباب متحسرين : كان زمن الشباب كذا وكذا . والواقع ان الحال لم تسؤ. والايام الماضية لا تفضل الايام الحاضرة حكمة وسعادة وانما بعدنا عنها يمكننا رؤية اثرها رؤية مجملة شاملة . وهذا ما لا نستطيع ان نفعله في ايامنا هذه لاننا ما زلنا فيها . ان رسم الحائك لا يرى الا متى تمت حياكة الثوب.

ويغلب ان تكون الشهرة نتيجة الفرصة السانحة وكثيراً ما تشبهها في مداها ! ف. ا. ب.

المدينة والتجارة المصرية

اهدت الينا مصلحة التجارة والصناعة «صحيفتها» وهي عبارة عن نشرة شهرية ضخمة ، قطعها كبير ، وعدد صفحاتها ١٢٠ . دخلت في سنتها السادسة ، وفيها المواضيع الواسعة الشاملة التجارة والصناعة والاقتصاد مع تقارير قنصليات المملكة المصرية وغير ذلك من الفوائد والروائع . واليك نبذة من مقال على التجارة المصرية في المدينة (يوليه ١٩٣٠ ، وجه ٦٧) والمقال مقتطف من تقرير قنصل مصر في جدة بعد زيارته المدينة يرمي فيه صاحبه الى دعوة مواطنيه الى انشاء معرض مصري في الحجاز لنشر المصنوعات التجارية فيها ، ولترغيب الحجاج بالتعريج على مصر في عودتهم . ولبست الفكرة بعيدة التحقيق لان البلاد المتنائية تقاربت بوسائل النقل العصرية :

بينا ان المدينة المنورة تعتمد في تجارتها ووارداتها على ما يأتي اليها من الخارج كما بينا ان ليس بها صناعات مطلقاً وان ما بها من الزراعة لا يكفي الا للاستهلاك المحلي ولا يمكن للمدينة الاعتماد على محصول زراعة القمح ولذا نراها في حاجة دائمة الى القمح لاستهلاكه وتصديره الى نجد . كما ان العدس والشعير المصري يمكن ان يروجا كثيراً في المدينة لو خفضت أسعارهما في مبدأ الامر والبطاطس يعتبر مأكول الطبقة الراقية ولكن أثمانه مرتفعة جداً اذ تباع الاقة باكثر من ستة قروش صاغ مصرية ولا يوجد في اغلب الاحيان الا عند بعض التجار فلو ان التجار المصريين عنوا بتوريد البطاطس باثمان معقولة لامكن كسب السوق وتوزيع كميات كبيرة من هذا المحصول لانه من المحقق أنه اذا رخصت الاسعار أقبل الاهلون على شرائه لما فيه من المادة المغذية.

الصابون — يكثر استعماله في المدينة خصوصاً في زمن الصيف وهو شائع بين جميع الطبقات والصابون المصري نافق السوق ولقد سمعت من الكثير الثناء

عليه وبخاصة المصنوع منه في فاوريقة احد الوطنيين بالاسكندرية . ويسرني ان اعلن ان الصابون المصري امكنه في المدينة بفضل اتقان صنع الفاوريقة المشار اليها ان يزاحم انواع الصابون الاجنبي.

السجاير المصرية — تروج في المدينة كثيراً ويقبل الاهالي على شراء الرخيص منها ومن المحقق كسب السوق للسجاير المصرية لان السكان يدخن اغلبهم ويستهلك مقداراً عظيماً منه اما التباك فعليه إقبال كبير.

الخاز والبترين — مقطوعيتهما كبيرة في المدينة وهي التي تقوم بترويدهما الى داخل نجد وفي بعض الاحيان يندر البترين في المدينة الى حد انه تطلب الصفيحة منه باي ثمن وقد رأيتها تباع بـ ٨٠ قرشاً مصرياً على ان يكون المشتري معروفاً وموصى عليه عند التاجر وهذا يرجع الى ندرة المعروض.

وفي ميسور المصريين ان يجعلوا المدينة مركزاً لتوزيع البترين خصوصاً في زمن الحج فوجود مستودع للبترين فيها وتحديد اثمان معتدلة له يجعل الاقبال عليه شديداً ويزيد في مقطوعيته.

الروائح العطرية — للروائح العطرية اهمية كبيرة في المدينة ولاسيما في زمن الحج فالتطيب من السنن ولكن اغلبها يأتي من الخارج ويفضل التجار المصنوع منها بمصر.

المنسوجات القطنية والصوفية والكتانية والحريرية — لا غنى للأهالي عنها ومعظمها يأتي من سورية ومن الثابت أن مصر تستطيع المزاحمة في هذا الميدان على شرط ان يكون الثمن معتدلاً الى حد يحبب الى المستهلك الشراء - ومقطوعية المنسوجات بانواعها كبيرة جداً اذا اعتبرنا ان المدينة هي سوق نجد في اغلب الاحيان ومعظم العربان يلبسون البفتة السمراء ونساؤهم يلبسن الجلابيب السوداء والملاءات السوداء والزرقاء القاتمة.

الحلويات — لها مقطوعية كبيرة بالمدينة وهي تأتي من مصر . وجملة القول ان في استطاعة التاجر والصانع المصريين ان يكسبا سوق المدينة واسواق الحجاز الاخرى اكثر من غيرهما . والتاجر يستطيع ان يرسل بضاعته من ينبع الى المدينة على السيارت في ٦ ساعات.

ف . ت.